قصة قصيرة

الاوروبي

برهان الخطيب

برق خاطف ، دوي جبار ، و .. سكون ابدي ! امام هـــذه اللحظة المنتظرة يتعرف فرنسوا على نفسه ، يتعرى موسيه امامه . وها هو يحيى اخيرا هذا الزمن اللولبي ، حادا كمخرز ، طويلا كسلم ممتد بين الارض والسماء . واذا ما انفجرت الحقيبة فلا بدايـــات ولا نهايات .

في « فاماغوستا » جلسا عـــلى رصيف الميناء بانتظار السماح للصعود الى البـــاخرة ، كلاهما يضع نظارة طبية أمام عينيه ، كلاهما يحمل حقيبة ظهريـة . كلاهما يتوجه الى أرض واحـــدة . نظر أحدهما الـى الآخر ، وبدأ فرنسوا الحديث بلغته :

ـ في روما لا تقف لك سيارة على الاطلاق . لـم أوفر ليرة واحدة . وقد قالوا لي هنـــاك : في العالم مدينتان لا تقف فيهما السيارات الخاصة لالتقاط أحـد مجانا : روما وتل أبيب ! بالنسبة للاخيرة الامر مفهوم، فالناس فيها يخشون الفدائيين الفلسطينيين كما يبدو. ولكن روما ، باختصار ، لا تعبأ بأحد .

نظر الآخر اليه طويلا، ثم ضحك وقال بالانكليزية :

ـ اسمي موسيه ، أيوحي لك الاسم بشيء ؟ انهم لا يوقفون سياراتهم بسبب الفلسطينيين فقط بل لان ذلك يكلفهم قطرات لا موجب لها من البنزين كما يبدو .

ـ وأنا فرنسوا . ألا تتحدث الفرنسية ؟

ـ كلا ، ولكنني افهمها .

ـ أقدر انك من هولندة اذن .

أشار موسيه مبتسما الى جيبه والتمعت عينـاه السوداوان ببريق معدني :

ـ أصارحك القول ، وطني هنا .

وابتسم فرنسوا لاول مرة :

ـ ألا تعترف اذن يا ذا الانف المعقـــوف بأن لك وطنين ؟!

ـ حدثتني مرة جدتي ان مـــن يدفن في أرض الميعاد لا تتفسخ جثته ، فترابها دواء ، وأنهرها حليب وعسل . ولكني لا أصدق هذا كما ترى ..

نقيضا لهذه « الجنة » ـ يحلل فرنسوا ـ ترد على خاطره الآن عمليات الفلسطينيين الفدائية ، ويرى عـلى شاشة ذهنه شريطا ملونا عنها ـ يواصل التحليل ـ كان من الجائز أن ترد على ذهنه صور أخرى غير هذه ، أن يرى نفسه مثلا مرتديا حلة اغريقيـــة يرفل فيها بين فيافي تلك الجنة المزعومة . فيتساءل : أتراه يميل اذن من حيث لا يدري الـــى معسكر الفلسطينيين ؟ يوجه سؤالا لموسيه :

ـ أتعتقد ان عمليـات الفلسطينيين تشكل خطرا محسوسا يهدد الحياة هناك ؟

يرمقه موسيه بنظرة من تحت حاجبيه السوداوين الكثيفين :

ـ لو كان الامر هكذا ، أكنت تلغي سفرتك ؟

ويرد فرنسوا عليه كما لو انه يحدث نفسه :

ـ ولكن عبور الشارع في أية مـدينة ربما كـان بحد ذاته مخاطرة. كما اني أرغب بتدقيق بعض معلومات أطروحتي عن تاريخ أديان هذه المنطقة .

ـ كان بامكانك أن تفعل هذا في باريس .

ـ فعلا .

وكرر فرنسوا هذه الكلمة في دخيلته أيضا ، وربما كان ذلك للمرة العاشرة ، فكلمـا كان يزداد اقترابـا من محطته العلمية كـــان هاجسه باحتمال حدوث شيء خارق ، كانفجار قنبلة مفـــاجيء ، أو اشتباك باطلاق الرصاص ، يتفـــاقم في نفسه أكثر فأكثر . وقد قطع هذا الهاجس الآن الاعلان عن السماح بصعود المسافرين الى الباخرة .

على ظهر الباخرة التقى موسيه بفرنسوا ، سأله :

ـ أما زلت تخشى من العمليات الانتحارية ؟

فكر فرنسوا قبـل الرد عليـــه : ها هـو هاجس اليهودي يطفو على سطح وعيه والا ألم يجد غير هـذا السؤال ليوجهه اليّ ؟ وأجاب :

ـ نحن الفرنسيين لا نخشى شيئا سوى زوجاتنا. وانت ؟

البريق المعدني نفسه سطا على عيني موسيه وهو يشير الى جيبه :

ـ نحن لا نخشى على أنفسنا شيئا قدر خشيتنا على هذا ..

وكان يمسك جيبه بيده الآن . فرأى فرنسوا في رد موسيه خروجا عن دائرة الصراحة والمزاح هذه المرة . ولكن متى كان فرنسوا يعبأ لاحد ، وما شأنه به ؟.. أم لعله سينفعه هناك كدليل أو لايجاد مكان مناسب للمبيت على الاقل ؟ واصله الحديث :

ـ ما الذي يدفعك اذن لعبور البحر ؟

ـ أريد أن أرى أرض أنهار الحليب والعسل لعلني أستقر فيها .

في بار الباخرة شرب فرنسوا قنينة ماء معدني . وموسيه علبة بيرة ، ترويحا للحر . سجل فرنسوا خلال ذلك في مفكرته ـ وهو يدخن ـ بعض الملاحظات التي استوفاها من محدثه موسيه عن طقوس ملته ، ولكنه وضع أمام بعضها علامات استفهام أو تعجب . الا انه رغم تسلحه بشرب الماء المعدني والتدخين والحديث عما يتصل من قريب أو بعيد بموضوع أطروحته كان هاجسه بامكانية وقوع حدث ما غير منتظر لما يزل يضرب صدغيه من الداخل . حتى بدا له انه انما يرحل لا ليحقق كشفا آخر لاطروحته بل ليحقق كشفا جديدا لذاته . من قبل ما كان ليخشى على نفسه شيئا من خوض هذه التجربة . أما وهو يقترب من تلك البؤرة المحتدمة بالصراع فانه ليفكر ربما بالعزوف عن المضي نحوها . ولكن ما فات قد فات . لا ليس جبنا ما يستشعره . الا انه لا يريد أن يلقى مصيرا مجانيا . بل يفضل الآن الاضطجاع على سريره في غرفته ، الى جانب كتبه واسطواناته .

ها هو هاجسه أخيرا ، ولعل مصيره أجمع أيضا ، يتجسد في هذه الحقيبة الآن . امامها ، وفي هذه اللحظة بالذات ، يكشف ذاته بشكل كامل ، يصبح واضحا لديه ، كالبرق الخاطف ، كالدوي الجبار ، اللذين قد يتفتقان عنها هنا هذه اللحظة ، انه على استعداد للتضحية بكل ثروات الدنيا من أجل كتبه ، بالعالم كله من اجل اسطواناته .. وذاته ، فهو لا يرى شيئا حقيقيا غير هذه الذات .. و .. هذه الحقيبة !

بعد التفتيش الدقيق في الميناء وضعا حقيبتيهما الظهريتين في دائرة الحفظ ، فتشتا هناك مرة أخرى . وخلال وقوفهما أمام شباك الحجز للفنادق أدار فرنسوا عينيه في أرجاء المكان وفي وجوه الناس ، قيل له هناك انه سيلقى مدينة هي امتداد لاوروبا في الشرق ، ولكنه ها هو يتحقق من الامر أخيرا بنفسه ، وابتسم ، يخشى أن يكون رأيه حصيلة انطباع عابر ، فلا هي تحمل شبها لها ولا هي احتفظت بخصوصية وجهها .. وانتبه الى موسيه يشير له أن يتبعه . هل يتبعه ؟ أخذ فرنسوا يتضايق من طريقته في الكلام ، فهو يكشف عن أسنانه كلها أثناء ذلك ، وينفخ خلالها كثيرا . عليهما الآن أن يستقلا باصا عاما سينقلهما الى نزلهما . وكان موسيه

ـ لا يدري فرنسوا لماذا ـ يضحك بمناسبة ودونها . وعندما صعدا الى الباص ولمحا هذه الحقيبة ـ منزوية اسفل المقعد المقابل ـ انطفأت ضحكته فظن فرنسوا ان الخوف استولى على صاحبه ، ولكنه لمح في عينيه في الحال ذلك البريق المعدني الخاطف الذي لاح من قبل مرتين فيهما . اذ رآه يشير الى جيبه خلل حديثه عن الوطن والحياة . تقدم موسيه بخفة قط وجلس في المكان الخالي محاذيا الحقيبة . ساحبا فرنسوا الى جواره . فحلت هذه اللحظة ـ الزمن اللولبي ، الحاد كمخرز ، الطويل كسلم ممتد بين الارض والسماء .

ـ هذه الحقيبة لا صاحب لها . أتفهم ما قد يعنيه هذا ؟!

يرد موسيه :

ـ ولكن ، أتظن حقا انها تضم قنبلة ؟!

ـ بالطبع . هذا جائز جدا . الواجب ان تعلن عنها ..

ـ بل مستحيل . انها حقيبة . الا ترى ؟ هذا الاسلوب العنفي أصبح من مخلفات الماضي . لا أحد يلجأ اليه الآن . أحقا تجهل هذا ؟

ـ ولماذا المخاطرة ؟ وما الذي تنوي أن تفعل بها اذن ؟!

ـ انني أحب العدل وهذا يقتضي المناصفة . سناخذها وننزل بها بعد موقفين كي لا نثير شبهة و .. فيفتي فيفتي .. ما رأيك ؟

ـ كلا ، يجب الاعلان عنها في الحال . قد تنفجر هذه اللحظة ..

ـ لا تكن غبيا . ان أذنيّ تسمعان همس الشياطين . او كان فيها ما تظن لصدرت تكتكة منها .

يكتشف فرنسوا في هذه اللحظة بقرف ذات صاحبه أيضا . انه نقيضه تماما ، مستعد للتضحية حتى بحياته من اجل كسب متخيل ، فهو لا يرى شيئا حقيقيا آخر غير هذا ، لا يرى مطلقا !..

فهل يتحتم عليه الآن أن يصرخ أمام الملأ معلنا عن الخطر المهدد في هذه الحقيبة ، أم ينتزعها عنوة من هذا الجلف ويقذف بها خارج الباص الذي تحول في عينيه فجأة الى علبة حديدية ؟ لا يعني التردد هذه المرة سوى الهلاك . يستعيد ذهنه ثانية رغما عنه ، وفي جزء من هذه اللحظة ، صورا من ذلك الشريط الملون . ويتوقف الباص أخيرا ..

ينهض فرنسوا دون التفات لاحد ، قرر اختيارا ثالثا ، الاكتفاء بمغادرة الباص .

تواصل العلبة الحديدية سيرها بعد ذلك ، موشكة على الانفجار في كل لحظة !

موسكو